

قضايا و آراء

الأثنين 29 من محرم 1422 هـ 23 ابريل 2001 السنة 125-العدد 41776

من الآيات الكونية في القرآن الكريم بقلم الدكتور : زغلول النجار



د. زغلول النجار

في مطلع الحديث عن كتاب الله لا بد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التي منها أنه كلام الله المعجز، الموحى به إلي خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربي مبين، والمنقول عنه (صلوات الله وسلامه عليه) نقلاً متواتراً بلا أدنى شبهة، بنفس النص الذي نجده في المصاحف التي خطت أو طبعت علي مر العصور، ومسجلاً في صدور الحفاظ جيلاً بعد جيل، ومن ثم علي مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة، والذي نزلت آياته منجمة علي مدي ثلاث وعشرين سنة، وكتبت في حياة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عقب الوحي بكل مجموعة منها مباشرة ثم رتب تلك الآيات في مائة وأربع عشرة (114) سورة بتوقيف من الله (سبحانه وتعالى) الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظاً كاملاً، بنفس اللغة التي نزل بها، كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، بينما تعرضت الكتب السماوية السابقة كلها إما للضياع التام، أو للتحريف والتبديل والتغيير، ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتعبد بتلاوته، والذي لاتصلح الصلاة الا بقراءة فاتحته وعدد من آياته، والذي لايعني عنه من الاحاديث أو الأذكار أو الأدعية شيء، لانه الوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم محفوظاً بحفظ الله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً بنفس اللغة التي أوحى بها وقد تحدى ربنا تبارك وتعالى كلا من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل:

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (الإسراء: 88)

كما سخر ربنا (تبارك وتعالى) ممن ادعي من المشركين أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد افتراه، وهو النبي الأمي الذي لايعرف القراءة أو الكتابة لحكمة يعلمها الله، فقد تحدى الله تعالى العرب علي ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة - أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتي بسورة من مثله، ولايزال هذا التحدي قائماً دون أن يستطيع بشر مجابته علي الرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرناً علي مجئ التنزيل بقول الله تعالى:

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم

من دون الله إن كنتم صادقين* فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل انتم مسلمون)[هود:13 و14]

وعلي قول الحق تبارك وتعالى:
(وان كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[البقرة:23]
وقد عجزت القدرات البشرية, ولا تزال عاجزة عن أن تداني كتاب الله في روعة بيانه, أو في كمال صفاته, ودقة دلالاته, وصدق أنبائه, وسمو معانيه, وعدالة تشريعه, أو في نهجه وصياغته, وتمام أحاطته بطبائع النفس البشرية, وقدرته علي التعامل معها وهدايتها, ودقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلي بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم) ومن هنا كان القول (بإعجاز القرآن)



أوجه الإعجاز في القرآن الكريم
تعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه, فكل آية من آياته فيها اعجاز لفظي وبياني ودلالي, وكل مجموعة من الآيات, وكل سورة من السور طالت أم قصرت, بما فيها من قواعد عقدية, أو أوامر تعبدية, أو قيم أخلاقية, أو ضوابط سلوكية, أو إشارات علمية, إلي شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وكائنات, وكل تشريع, وكل قصة, وكل واقعة تاريخية, وكل وسيلة تربوية, وكل نبوءة مستقبلية, كل ذلك يفيض بجلال الربوبية, ويتميز عن كل صياغة انسانية ويشهد للقرآن بالتفرد كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتي بشيء من مثله.
وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز في كتاب الله, وكان منهم من رأي ذلك في جمال بيانه, ودقة نظمته, وكمال بلاغته, أو في روعة معانيه وشمولها وإتساقها ودقة صياغتها, وقدرتها علي مخاطبة الناس علي اختلاف مداركهم وأزمانهم, واشعاعها بجلال الربوبية في كل آية من آياته.

ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن في كمال تشريعه, ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله, أو في استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام), مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس.

ومنهم من رأي إعجاز القرآن الكريم في منهجه التربوي الفريد, وأطره النفسية السامية والعلمية في نفس الوقت, والثابتة علي مر الأيام, أو في

إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو في إشاراتِهِ إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن معروفاً لأحد من البشر وقت نزول القرآن ولآلِمئات من السنين بعد ذلك النزول، ومنهم من رأى إعجاز القرآن في صموده علي مدي يزيد علي أربعة عشر قرناً لكل محاولات التحريف التي قامت بها قوي البشر المتعددة متمثلة في الكفرة والمشركين والملاحدة علي مدي تلك القرون العديدة وذلك لأن الله تعالي تعهد بحفظه فحفظ قال تعالي:

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

[الحجر: آية 9]

ومن العلماء من يري إعجاز القرآن في ذلك كله وفي غيره مما يقصر الحديث دونه.

الإعجاز النظمي للقرآن الكريم

كانت الكثرة الكاثرة من القدامي والمعاصرين علي حد سواء قد ركزوا اهتمامهم علي ناحية نظم القرآن الكريم فهذا ابن عطية الأندلسي (ت 546 هـ) يذكر في مقدمة تفسيره (278/1) مانصه:

إن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعني بعد المعني، ثم كذلك من أول القرآن الي آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك، فهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوي من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتهم الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط، ولهذا نري البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا، ثم ينظر فيها فيغير منها، وهلم جرا، وكتاب الله لو نزع من لفظه، ثم أدير لسان العرب علي لفظه أحسن منها لم يوجد... وقامت الحجة علي العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومطنة المعارضة.

وهذا هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أحد العلماء المعاصرين يكتب فصلا في اعجاز القرآن (كتقديم لترجمته لكتاب الطاهرة القرآنية للمفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي) يرحمه الله) يحدد فيه الاعجاز في دائرة البيان والنظم حيث يقول: إن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أي ذلك كان في تلاوته علي سامعيه من العرب، الدليل الذي يطالبه بان يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم.

وإذا صح ان قليل القرآن وكثيره سواء من هذا الوجه، ثبت أن ما في القرآن جملة، من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات علي مالم يعرفه البشر من أسرار الكون الا بعد القرون المتطاولة من تنزيله، كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب، وهو ان يستبينوا في نظمه وبيانه انفاكاه من نظم البشر وبيانهم، ومن وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين...

ولكن اذا جار هذا التحديد علي موقف التحدي من مشركي العرب - علي الرغم من عدم وجود الدليل علي ذلك - فانه بالقطع لايجوز علي اطلاقه، خاصة أن العرب اليوم في جملتهم قد فقدوا الحس اللغوي الذي تميز به أسلافهم، وأن التحدي بالقرآن للانس والجن متظاهرين هو تحد مستمر قائم الي يوم الدين، مما يؤكد أن ما في القرآن من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب في هدايتها

وإرشادها وتربيتها، ومن مختلف الصور التي ضربت لعجائب آيات الله في خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه ولا يزال يكتشفه (في كتاب الله) متخصصون في كل حقل من حقول المعرفة، لا يمكن أن يبقى بمعزل عن ذلك التحدي المفصي الي الاعجاز القرآني، والدال علي أن القرآن كلام الله.

نشأة منهج التفسير العلمي لكتاب الله
يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير الي الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، والي صور من نشأتها، ومراحل تكونها، والي العديد من الطواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الالهية التي تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة، وتفهم للحكمة، وما يستوجه من ايمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وافعاله، وهو - سبحانه وتعالى - الخالق الباريء المصور الذي أبدع ذلك الخلق بعلم وقدره وحكمة لاتحدها حدود، ولايفيها حقها وصف.

وقد أحصي الدارسون من هذه الاشارات الكونية في كتاب الله مايقدر بحوالي الألف آية صريحة، بالاضافة إلي آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، وبدوام اتساع دائرة المعرفة الانسانية، وتكرار تأمل المتأملين في كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته - جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر - لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله ما يؤكد علي تحقق الوعد الالهي الذي يقول فيه ربنا(تبارك وتعالى):
(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد)[فصلت: آية 53]

ويدهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الاشارات الكونية في كتاب الله يتباين الأفراد وخلقياتهم الثقافية وأزمانهم، وباتساع دائرة المعرفة الانسانية في مجال الدراسات الكونية(التي تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية) من عصر الي عصر، وأول من بسط القول في ذلك الامام الغزالي(ت505هـ) في كتابيه إحياء علوم الدين وجواهر القرآن والذي رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا وأن من صور اعجاز القرآن اشتماله علي كل شيء، وأن كل شيء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن، حتي علم الهيئة، والنجوم، والطب الي آخر ما ذكر. وتبع الإمام الغزالي في ذلك كثيرون، كان من أشهرهم في القديم العلامة الشيخ الفخر الرازي (ت 606 هـ)، وفي الحديث فضيلة الشيخ طنطاوي جوهرى (ت 1359 هـ)، مما أدى الي بروز المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم، والذي يعتمد في تفسير الاشارات الكونية الواردة في كتاب الله علي ضوء من معطيات العلوم الحديثة، مع تفاوت في ذلك من عصر الي عصر. ويعتبر تفسير الرازي المعنونمفاتيح الغيب أول تفسير يفيض في بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة مايتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التي كانت معروفة في زمانه، والتي كان هو علي معرفة بها. أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى والمعنون الجواهر في تفسير القرآن الكريم فيعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمي، اذ يقع في خمسة وعشرين جزءا كبارا، حاول فيها الشيخ (يرحمه الله) تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر، وما وصلت اليه المعارف الانسانية في مجال دراسات الكون ومافيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الطواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الالهية التي تحكمها، ليرهن للقراريء أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وايضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوي علي كل ما وصل، وما سيصل اليه

البشر من معارف.

هذا، وقد نعي الشيخ الجوهري (يرحمه الله) علي علماء المسلمين اهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم، وتركيز جهودهم علي الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: لماذا ألف علماء الاسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه، وعلم الفقه ليس له في القرآن الا آيات قلائل لاتصل إلي مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جدا في علوم الكائنات التي لاتكاد تخلو منها سورة؟.

ولذا فاننا نجد في مطلع تفسيره يتوجه بنداء الي المسلمين يقول فيه: يا أمة الاسلام، آيات معدودات في الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الاسلام... هذا زمان رقيه، ياليت شعري، لماذا لانعمل في آيات العلوم الكونية مافعله أبؤنا في علوم الميراث؟ ثم يضيف: ان نظام التعليم الاسلامي لابد من ارتقائه، فعلمو البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظه، وما نكتبها اليوم (يقصد في تفسيره)، علوم معناه...

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتاه فيها من اشارات الي مختلف الدراسات الحديثة، بل انه قد استعان في هذا التفسير - الفريد من نوعه - بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العديدة التي ينظمها حساب الجمل المعروف.

وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير (كما اعتبر من قبل) جنوحا الي الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم علي غير مقاصدها التشريعية والايمانية، استنادا الي الحقيقة المسلمة ان القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولاجدول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وانما هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان ان يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، والقرآن العظيم حين يلفت نظر الانسان الي مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال علي قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتديبره ومن قبيل إقامة الحجة البينة علي الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد علي إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه وعلي حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود الي رحمة ذلك الخالق العظيم.

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا (يرحمه الله) يكتب في مقدمة تفسيره المنار مانصه:..... وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة علي ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهري) بايراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية، فصولا طويلة - بمناسبة كلمة مفردة، كالسماء أو الأرض - من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد القاريء عما أنزل الله لأجله القرآن.

وعلي الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمي قديما وحديثا، الا ان عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الاشارات الكونية في كتاب الله أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون علي اجمالها وتناثرها

بين آيات الكتاب المجيد - تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق، وصورة من صور الاعجاز في كتاب الله - الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وان ذلك قد لا يتضح إلا للراشخين في العلم من المتخصصين في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية (كل في حقل تخصصه)، وحتى هؤلاء يظل يتسع ادراكهم لذلك الاعجاز بانساع دائرة المعرفة الانسانية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى:

[إن هو إلا ذكر للعالمين* ولتعلمن نبأه بعد حين] (ص: 87 و 88)

ولقول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في وصفه للقرآن الكريم بأنه لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد:

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في مختلف مجالات المعرفة الانسانية - في كل عصر وفي كل جيل - أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من المام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول، واحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة علي شرح آيات الكتاب الحكيم - كل فيما يخصه - حتى تستبين للناس جوانب من الاعجاز في كتاب الله، لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه. وحتى يتحقق قول الله تعالى في محكم كتابه:

[لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون] (الأنعام: آية 67)

وانطلاقاً من ذلك الفهم، ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الاعجاز العلمي في كتاب الله من أشهرها في القديم كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية لمحمد بن احمد الاسكندراني الطبيب (وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري).

ورسالة عبد الله فكري (وهو من وزراء المعارف السابقين في مصر في مطلع هذا القرن) والتي يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم في ذلك، وكتاب الاسلام والطب الحديث لعبد العزيز اسماعيل، ورياض المختار لأحمد مختار (الغازي)، وكتاباً معجزة القرآن في وصف الكائنات و التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد، وكتاباً في سنن الله الكونية و الاسلام في عصر العلم لمحمد أحمد العمراوي، واعجاز القرآن في علم طبقات الأرض لمحمد محمود ابراهيم، و العلوم الطبيعية في القرآن ليوسف مروة، وسلسلة كتب كل من محمد جمال الدين الفندي وعبد الرزاق نوفل في نفس الموضوع، وكتاب أضواء من القرآن علي الانسان ونشأة الكون والحياة لعبد الغني الخطيب، والقرآن والعلم لأحمد محمود سليمان، ومن اشارات العلوم في القرآن الكريم لعبدالعزیز سيد الأهل، و محاولة لفهم عصري للقرآن لمصطفى محمود، وتفسير الآيات الكونية لعبد الله شحاتة، والاسلام والعلم التجريبي ليوسف السويدي، والقرآن تفسير الكون والحياة لمحمد العفيفي، وكتاب الانجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي، وكتاب خلق الانسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار، هذا بالاضافة الي ماظهر مؤخراً من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الاعجاز العلمي في القرآن وردت مجمعة في كتب اسلامية متعددة، أو متناثرة في كثير من التفاسير التي حررت في النصف الأخير من

هذا القرن.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج - بحق أحياناً، وبغير ذلك في أحيان أخرى كثيرة - للمزيد من النقد والتجريح الذي أسس علي أن معجزة القرآن هي في الأصل معجزة بيانه الذي أدرك أساطين اللغة العربية فيه، ومنذ سماع أولي آياته، أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر، وأن علينا أن نفهم الاسلام كما بينه نبي الاسلام (صلوات الله وسلامه عليه) وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية في القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور في فهم الحقائق العلمية، أو انتفاء لشروط القدرة علي الاجتهاد في التفسير، أو لكليهما معاً،

وعلي الرغم من ذلك كله، فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الاعجاز العلمي في أي القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج، حتى قام المجلس الاعلي للشتون الإسلامية في مصر بتشكيل عدد من اللجان العلمية التي ضمت الي علماء القرآن وتفسيره، والحديث ورجاله والفقهاء وأصوله، والشريعة وعلومها، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ الاسلامي وتفصيله، عدداً من كبار العلماء والباحثين والمفكرين في مختلف جنبات المعرفة الانسانية، وقد قام كل هؤلاء بمدارسة كتاب الله في اجتماعات طالت لسنين كثيرة، ثم تبلورت في تفسير موجز تحت اسم المنتخب في تفسير القرآن، كتب بأسلوب عصري وجيز، سهل مبسط، واضح العبارة، بعيد عن الخلافات المذهبية، والتعقيدات اللفظية والمصطلحات الفنية، وقد أشير في هوامشه الي ما ترشد اليه الآيات القرآنية من نواميس الحياة وأسرار الكون، ووقائعه العلمية التي لم تعرف الا في السنوات الأخيرة، والتي خصها ذلك التفسير في مقدمته بأنه لا يمكن الا أن يكون القرآن قد أشار اليها لأنه ليس من كلام البشر، ولكنه من كلام خلاق القوي والقدر، الذي وعد بذلك في محكم هذا الكتاب فقال

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق او لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) [فصلت: آية 53]
كما تمت الاشارة في مقدمة هذا التفسير الوجيز إلي أنه سيتلوه تفسير اخر وسيط في شيء من البسط والتفصيل يليه المفصل إن شاء الله تعالى.
حجة المعارضين لتعبير الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

وقبل استعراض مواقف المفسرين في عصرنا الحاضر من الآيات الكونية في كتاب الله (أي الآيات التي تحتوي علي إشارات لبعض أشياء هذا الكون من مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والجبال والأحجار، والأنهار والبحار، والرياح والسحاب والمياه، والرعد والبرق، ومراحل الجنين في الإنسان، وبعض صور الحيوان ومنتجاته والنبات، ومحاصيله وثماره وغير ذلك) لابد لنا من الإشارة الي أن بعض الكتاب من القدامي والمعاصرين - علي حد سواء.. قد اعترض علي استخدام لفظ معجزة ومشتقاته في الإشارة الي عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بشيء من مثله، أو إلي أستعصاء تقليد القرآن الكريم علي الجهد البشري واستعلائه عليه، لأنه كلام الله تعالى، المعايير لكلام البشر جملة وتفصيلاً، ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وفي كل عصر من العصور التالية لنزوله إلي أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وحجة المعارضين علي لفظ معجزة ومشتقاته تقوم علي أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر في كتاب الله بالمعنى الشائع اليوم، ولا في الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة وإن وردت مشتقاته للدلالة علي عدد من المعاني

القريبة أو المغايرة قليلا لذلك في ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم
بألفاظ أعجز، ومعجزين، ومعجزين وعجوز وأعجاز وتصريفاتها ودلالاتها في
تلك المواضع قد تبعد قليلا عما أريد التعبير عنه بلفظ المعجزة عند علماء
اللغة، خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دوماً إلي مدلول المعجزة بلفظ
آية (بصيغة المفرد والمثنى والجمع) في أكثر من 380 موضعا منها قول الحق
تبارك وتعالى:
(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه)
[الأنعام: آية 37]

وقوله (عز من قائل):
(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) [البقرة: آية 118]
وقوله تعالى:
(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) [البقرة: آية 145]
وقوله:
(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) [البقرة: آية 211]

وقوله تعالى علي لسان أحد أنبياء بني إسرائيل:
(وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت... إن في ذلك لآية لكم إن
كنتم مؤمنين..)
[البقرة: آية 248]
قوله تعالى علي لسان نبيه صالح (عليه السلام) مخاطبا قومه:
(... هذه ناقة الله لكم آية...)
[الأعراف: الآية 73]

وقوله علي لسان فرعون وقومه وهم يعارضون سيدنا موسى (علي نبينا
وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم):
(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) [الأعراف: آية
132]
وهذه حجة مردودة لأن التعبير عن إعجاز القرآن قد استخدم منذ القرون
الهجرية الأولى، ولم يجد علماء المسلمين من الصحابة والتابعين عضاضة في
استخدام هذا التعبير علي الرغم من عدم وروده بهذا المعني في كتاب الله.

قضايا و آراء

الأثني عشر
29 من محرم 1422 هـ
23 ابريل 2001
السنة 125 -
العدد 41776

من الآيات الكونية في القرآن الكريم بقلم الدكتور : زغلول النجار



د. زغلول
النجار

في مطلع الحديث عن كتاب الله لا بد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التي منها أنه كلام الله المعجز، الموحى به إلي خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربي مبين، والمنقول عنه (صلوات الله وسلامه عليه) نقلا متواترا بلا أدنى شبهة، بنفس النص الذي نجده في المصاحف التي خطت أو طبعت علي مر العصور، ومسجلا في صدور الحفاظ جيلا بعد جيل، ومن ثم علي مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة، والذي نزلت آياته منجمة علي مدي ثلاث وعشرين سنة،

وكتبت في حياة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عقب الوحي بكل مجموعة منها مباشرة ثم رتبت تلك الآيات في مائة وأربع عشرة (114) سورة بتوقيف من الله (سبحانه وتعالى) الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظا كاملا، بنفس اللغة التي نزل بها، كلمة كلمة، وحرفا حرفا، بينما تعرضت الكتب السماوية السابقة كلها إما للضياع التام، أو للتحريف والتبديل والتغيير، ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتعبد بتلاوته، والذي لاتصلح الصلاة الا بقراءة فاتحته وعدد من آياته، والذي لا يغني عنه من الاحاديث أو الأذكار أو الأدعية شيء، لانه الوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم محفوظا بحفظ الله كلمة كلمة وحرفا حرفا بنفس اللغة التي أوحى بها وقد تحدي ربنا تبارك وتعالى كلا من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل:
(قل لئن اجتمعت الإنس والجن وأن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(الإسراء:88)

كما سخر ربنا (تبارك وتعالى) ممن ادعي من المشركين أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد افتراه، وهو النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة لحكمة يعلمها الله، فقد تحدي الله تعالى العرب علي ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة - أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتي بسورة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائما دون أن يستطيع بشر مجابته علي الرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرنا علي مجئ التنزيل بقول الله تعالى:

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين* فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل انتم مسلمون)(هود:13 و14)

وعلي قول الحق تبارك وتعالى:
(وان كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)(البقرة:23)
وقد عجزت القدرات البشرية، ولا تزال عاجزة عن أن تداني كتاب الله في روعة بيانه، أو في كمال صفاته، ودقة دلالاته، وصدق أنبائه، وسمو معانيه، وعدالة تشريعه، أو في نهجه وصياغته، وتمام أحاطته بطبائع النفس

البشرية، وقدرته علي التعامل معها وهدايتها، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم) ومن هنا كان القول (بإعجاز القرآن)



أوجه الإعجاز في القرآن الكريم تتعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه، فكل آية من آياته فيها إعجاز لفظي وبياني ودلالي، وكل مجموعة من الآيات، وكل سورة من السور طالت أم قصرت، بما فيها من قواعد عقدية، أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية، أو ضوابط سلوكية، أو إشارات علمية، إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسح وما فيه من ظواهر وكائنات، وكل تشريع، وكل قصة، وكل واقعة تاريخية، وكل وسيلة تربوية، وكل نبوءة مستقبلية، كل ذلك يفيض بجلال الربوبية، ويتميز عن كل صياغة انسانية ويشهد للقرآن بالتفرد كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتي بشيء من مثله.

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز في كتاب الله، وكان منهم من رأى ذلك في جمال بيانه، ودقة نظمه، وكمال بلاغته، أو في روعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها، وقدرتها علي مخاطبة الناس علي اختلاف مداركهم وأزمانهم، واشعاعها بجلال الربوبية في كل آية من آياته.

ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن في كمال تشريعه، ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، أو في استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام)، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم في منهجه التربوي الفريد، وأطره النفسية السامية والعلمية في نفس الوقت، والثابتة علي مر الأيام، أو في إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو في إشاراتِهِ إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن معروفاً لأحد من البشر وقت نزول القرآن ولآلِمَنَات من السنين بعد ذلك النزول، ومنهم من رأى إعجاز القرآن في صموده علي مدي يزيد علي أربعة عشر قرناً لكل محاولات التحريف التي قامت بها قوي الشر المتعددة متمثلة في الكفرة والمشركين والملاحدة علي مدي تلك القرون العديدة وذلك لأن الله تعالي تعهد بحفظه فحفظ قال تعالي:

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

[الحجر: آية 9]

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن في ذلك كله وفي غيره مما يقصر الحديث دونه.

الإعجاز النظمي للقرآن الكريم كانت الكثرة الكاثرة من القدامي والمعاصرين علي حد سواء قد ركزوا اهتمامهم علي ناحية نظم القرآن الكريم فهذا ابن عطية الأندلسي (ت 546 هـ) يذكر في مقدمة تفسيره (278/1) مانصه:

إن الله قد أحاط بكل شيء علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن الي آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك، فهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوي من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: ان العرب كان في قدرتهم الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط، ولهذا نرى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا، ثم ينظر فيها فيغير منها، وهلم جرا، وكتاب الله لو نزعته منه لفظة، ثم أدير لسان العرب علي لفظة أحسن منها لم يوجد... وقامت الحجة علي العالم بالعرب، اذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة.

وهذا هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أحد العلماء المعاصرين يكتب فضلا في اعجاز القرآن (كتقديم لترجمته لكتاب الظاهرة القرآنية للمفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي) (يرحمه الله) يحدد فيه الاعجاز في دائرة البيان والنظم حيث يقول: ان الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أي ذلك كان في تلاوته علي سامعيه من العرب، الدليل الذي يطالبه بان يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم.

وإذا صح ان قليل القرآن وكثيره سواء من هذا الوجه، ثبت أن ما في القرآن جملة، من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات علي مالم يعرفه البشر من أسرار الكون الا بعد القرون المتطاولة من تنزيله، كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب، وهو ان يستبينوا في نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم، ومن وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين...

ولكن اذا جاز هذا التحديد علي موقف التحدي من مشركي العرب - علي الرغم من عدم وجود الدليل علي ذلك - فانه بالقطع لايجوز علي اطلاقه، خاصة أن العرب اليوم في جملتهم قد فقدوا الحس اللغوي الذي تميز به أسلافهم، وأن التحدي بالقرآن للانس والجن متطاهرين هو تحد مستمر قائم الي يوم الدين، مما يؤكد أن ما في القرآن من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب في هدايتها وإرشادها وتربيتها، ومن مختلف الصور التي ضربت لعجائب آيات الله في خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه ولايزال يكتشفه (في كتاب الله) متخصصون في كل حقل من حقول المعرفة، لايمكن أن يبقى بمعزل عن ذلك التحدي المفضي الي الاعجاز القرآني، والدال علي أن القرآن كلام الله.

نشأة منهج التفسير العلمي لكتاب الله يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير الي الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، والي صور من نشأتها، ومراحل تكوينها، والي العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الالهية التي تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة، وتفهم للحكمة، وما يستتوجه من ايمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وافعاله، وهو - سبحانه وتعالى - الخالق البارئ المصور الذي أبدع ذلك الخلق بعلم وقدره وحكمة لاتحدها حدود، ولايفيها حقها وصف.

وقد أحصي الدارسون من هذه الاشارات الكونية في كتاب الله مايقدر بحوالي الألف آية صريحة، بالاضافة إلي آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من

الصراحة, وبدوام اتساع دائرة المعرفة الانسانية, وتكرار تأمل المتأملين في كتاب الله, وتدبر المتدبرين لآياته - جيلا بعد جيل, وعصرا بعد عصر - لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله ما يؤكد علي تحقق الوعد الالهي الذي يقول فيه ربنا(تبارك وتعالى):
(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد)[فصلت: آية53]

وبدهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الاشارات الكونية في كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم, وباتساع دائرة المعرفة الانسانية في مجال الدراسات الكونية(التي تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية) من عصر الي عصر, وأول من بسط القول في ذلك الامام الغزالي(ت505هـ) في كتابه إحياء علوم الدين وجواهر القرآن والذي رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا وأن من صور اعجاز القرآن اشتماله علي كل شيء, وأن كل شيء, وأن كل العلوم تشعبت من القرآن, حتي علم الهيئة, والنجوم, والطب الي آخر ما ذكر.

وتبع الإمام الغزالي في ذلك كثيرون, كان من أشهرهم في القديم العلامة الشيخ الفخر الرازي (ت606 هـ), وفي الحديث فضيلة الشيخ طنطاوي جوهرى (ت1359 هـ), مما أدى الي بروز المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم, والذي يعتمد في تفسير الاشارات الكونية الواردة في كتاب الله علي ضوء من معطيات العلوم الحديثة, مع تفاوت في ذلك من عصر الي عصر. ويعتبر تفسير الرازي المعنونمفاتيح الغيب أول تفسير يفيض في بيان المسائل العلمية والفلسفية, خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة, وغير ذلك من العلوم والفنون التي كانت معروفة في زمانه, والتي كان هو علي معرفة بها.

أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى والمعنون الجواهر في تفسير القرآن الكريم فيعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمي, اذ يقع في خمسة وعشرين جزءا كبيرا, حاول فيها الشيخ (يرحمه الله) تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر, وما وصلت اليه المعارف الانسانية في مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية, ومن عوالم الجمادات والأحياء, ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها, والسنن الالهية التي تحكمها, ليرهن للقاريء أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وايضاح غفل عنه كثير من السابقين, وأنه بحق ينطوي علي كل ما وصل, وما سيصل اليه البشر من معارف.

هذا, وقد نعي الشيخ الجوهرى (يرحمه الله) علي علماء المسلمين اهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم, وتركيز جهودهم علي الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: لماذا ألف علماء الاسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه, وعلم الفقه ليس له في القرآن الا آيات قلائل لاتصل إلي مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه, وقل جدا في علوم الكائنات التي لاتكاد تخلو منها سورة؟.

ولذا فاننا نجد في مطلع تفسيره يتوجه بنداء الي المسلمين يقول فيه: يا أمة الاسلام, آيات معدودات في الفرائض(يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعا من علم الرياضيات, فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم, وهذا زمان ظهور الاسلام... هذا زمان رقيه, ياليت

شعري، لماذا لانعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله أبائنا في علوم الميراث؟ ثم يضيف: ان نظام التعليم الاسلامي لايد من ارتقائه، فعلم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظه، وما نكتبها اليوم (يقصد في تفسيره)، علوم معناه.... ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتأه فيها من اشارات الي مختلف الدراسات الحديثة، بل انه قد استعان في هذا التفسير - الفريد من نوعه - بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العديدة التي ينظمها حساب الجمل المعروف.

وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير (كما اعتبر من قبل) جنوحا الي الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم علي غير مقاصدها التشريعية والايمانية، استنادا الي الحقيقة المسلمة ان القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جدول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وانما هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، والقرآن العظيم حين يلفت نظر الانسان الي مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال علي قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتديبره ومن قبيل إقامة الحجة البينة علي الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد علي إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه وعلي حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود الي رحمة ذلك الخالق العظيم.

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا (برحمه الله) يكتب في مقدمة تفسيره المنار مانصه:..... وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة علي ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهرى) بايراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية، فصولا طويلة - بمناسبة كلمة مفردة، كالسما أو الأرض - من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد القاريء عما أنزل الله لأجله القرآن. وعلي الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمي قديما وحديثا، إلا أن عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الاشارات الكونية في كتاب الله أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون علي اجمالها وتأثيرها بين آيات الكتاب المجيد - تبقى بيانا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق، وصورة من صور الاعجاز في كتاب الله - الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وان ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين في العلم من المتخصصين في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية (كل في حقل تخصصه)، وحتى هؤلاء يظل يتسع ادراكهم لذلك الاعجاز باتساع دائرة المعرفة الانسانية جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى:

(إن هو إلا ذكر للعالمين* ولتعلمن نبأه بعد حين) [ص: 87 و88]

ولقول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في وصفه للقرآن الكريم بأنه لانتقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في مختلف مجالات المعرفة الانسانية - في كل عصر وفي كل جيل - أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من المام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وأدائها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول، واحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة علي شرح آيات الكتاب الحكيم - كل فيما يخصه - حتي تستبين للناس جوانب من الاعجاز في كتاب الله، لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه. وحتى يتحقق قول الله تعالى في محكم كتابه: (لكل نبياً مستقر وسوف تعلمون) [الأنعام: آية 67]

وانطلاقاً من ذلك الفهم، ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الاعجاز العلمي في كتاب الله من أشهرها في القديم كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية لمحمد بن احمد الاسكندراني الطبيب (وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري).

ورسالة عبد الله فكري (وهو من وزراء المعارف السابقين في مصر في مطلع هذا القرن) والتي يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم في ذلك، وكتاب الاسلام والطب الحديث لعبد العزيز اسماعيل، ورياض المختار لأحمد مختار (الغازي)، وكتابا معجزة القرآن في وصف الكائنات و التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد، وكتابا في سنن الله الكونية و الاسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي، واعجاز القرآن في علم طبقات الأرض لمحمد محمود ابراهيم، و العلوم الطبيعية في القرآن ليوسف مروة، وسلسلة كتب كل من محمد جمال الدين الفندي وعبد الرزاق نوفل في نفس الموضوع، وكتاب أضواء من القرآن علي الانسان ونشأة الكون والحياة لعبد الغني الخطيب، والقرآن والعلم لأحمد محمود سليمان، ومن اشارات العلوم في القرآن الكريم لعبدالعزیز سيد الأهل، و محاولة لفهم عصري للقرآن لمصطفى محمود، وتفسير الآيات الكونية لعبد الله شحاتة، و الاسلام والعلم التجريبي ليوسف السويدي، والقرآن تفسير الكون والحياة لمحمد العفيفي، وكتاب الانجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي، وكتاب خلق الانسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار، هذا بالاضافة الي ماظهر مؤخرا من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الاعجاز العلمي في القرآن وردت مجمعة في كتب اسلامية متعددة، أو متناثرة في كثير من التفاسير التي حررت في النصف الأخير من هذا القرن.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج - بحق أحيانا، وبغير ذلك في أحيان أخرى كثيرة - للمزيد من النقد والتجريح الذي أسس علي أن معجزة القرآن هي في الأصل معجزة بيانه الذي أدرك اساطين اللغة العربية فيه، ومنذ سماع أولي آياته، أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر، وأن علينا أن نفهم الاسلام كما بينه نبي الاسلام (صلوات الله وسلامه عليه) وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية في القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور في فهم الحقائق العلمية، أو انتفاء لشروط القدرة علي الاجتهاد في التفسير، أو لكليهما معا،

وعلي الرغم من ذلك كله، فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الاعجاز العلمي في أي القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج، حتى قام المجلس الاعلى للثئون الاسلاميه في مصر بتشكيل عدد من اللجان العلميه التي ضمت الي علماء القرآن وتفسيره، والحديث ورجاله والفقه وأصوله، والشريعة وعلومها، واللغة العربيه وأدابها، والتاريخ الاسلامي وتفصيله، عددا من كبار العلماء والباحثين والمفكرين في مختلف جنات المعرفة الانسانية، وقد قام كل هؤلاء بمدارسة كتاب الله في اجتماعات طالت لسنين كثيره، ثم تبلورت في تفسير موجز تحت اسم المنتخب في تفسير القرآن، كتب بأسلوب عصري وجيز، سهل مبسط، وأضح العبارة، بعيد عن الخلافات المذهبيه، والتعقيدات اللفظيه والمصطلحات الفنيه، وقد أشير في هوامشه الي ما ترشد اليه الآيات القرآنيه من نواميس الحياه وأسرار الكون، ووقائعه العلميه التي لم تعرف الا في السنوات الأخيره، والتي خصها ذلك التفسير في مقدمته بأنه لا يمكن الا أن يكون القرآن قد أشار اليها لأنه ليس من كلام البشر، ولكنه من كلام خلاق القوي والقدر، الذي وعد بذلك في محكم هذا الكتاب فقال

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق او لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد)[فصلت: آية 53]

كما تمت الاشارة في مقدمة هذا التفسير الوجيز إلي أنه سيتلوه تفسير اخر وسيط في شيء من البسط والتفصيل يليه المفصل إن شاء الله تعالى.

حجة المعارضين لتعبير الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

وقبل استعراض مواقف المفسرين في عصرنا الحاضر من الآيات الكونية في كتاب الله (أي الآيات التي تحتوي علي إشارات لبعض أشياء هذا الكون من مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والجبال والأحجار، والأنهار والبحار، والرياح والسحاب والمياه، والرعد والبرق، ومراحل الجنين في الإنسان، وبعض صور الحيوان ومنتجاته والنبات، ومحاصيله وثماره وغير ذلك) لابد لنا من الإشارة الي أن بعض الكتاب من القدامي والمعاصرين - علي حد سواء.. قد اعترض علي استخدام لفظ معجزة ومشتقاته في الإشارة الي عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بشئ من مثله، أو إلي أستعصاء تقليد القرآن الكريم علي الجهد البشري واستعلائه عليه، لأنه كلام الله تعالى، المغاير لكلام البشر جملة وتفصيلا، ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وفي كل عصر من العصور التالية لنزوله إلي أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وحجة المعارضين علي لفظ معجزة ومشتقاته تقوم علي أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر في كتاب الله بالمعني الشائع اليوم، ولا في الصحيح من الأحاديث النبويه الشريفه وإن وردت مشتقاته للدلالة علي عدد من المعاني القريبه أو المغايرة قليلا لذلك في ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم بالفاظ أعجز، ومعجزين، ومعجزين وعجوز وأعجاز وتصريفاتها ودلالاتها في تلك المواضع قد تبعد قليلا عما أريد التعبير عنه بلفظ المعجزة عند علماء اللغة، خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دوما إلي مدلول المعجزة بلفظ آية (بصيغة المفرد والمثنى والجمع) في أكثر من 380 موضعا منها قول الحق تبارك وتعالى:

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه)

[الأنعام: آية 37]

وقوله (عز من قائل):
(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) [البقرة: آية 118]
وقوله تعالى:
(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) [البقرة: آية 145]
وقوله:
(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) [البقرة: آية 211]

وقوله تعالى علي لسان أحد أنبياء بني إسرائيل:
(وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن ياتيكم التابوت... إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين..)
[البقرة: آية 248]
قوله تعالى علي لسان نبيه صالح (عليه السلام) مخاطبا قومه:
(... هذه ناقة الله لكم آية...)
[الأعراف: الآية 73]

وقوله علي لسان فرعون وقومه وهم يعارضون سيدنا موسى (علي نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم):
(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) [الأعراف: آية 132]

وهذه حجة مردودة لأن التعبير عن إعجاز القرآن قد استخدم منذ القرون الهجرية الأولى، ولم يجد علماء المسلمين من الصحابة والتابعين غضاظة في استخدام هذا التعبير علي الرغم من عدم وروده بهذا المعني في كتاب الله.